مقدمة عن:

الأسلوبية... ذلك المنهج الجديد

أ. د. طه وادي

اليوم.. لم يعد ثمة ريبٌ بين الدارسين العرب للنصّ الأدبي - رغم اختلاف عصوره وتعدد أنواعه - أن المنهج «الأسلوبي»، قد أصبح أكثر المناهج المعاصرة قدرة على تحليل الخطاب الأدبي بطريقة علمية موضوعية، تعيد مجال الدراسة - دراسة النصّ - إلى مكانها الصحيح، وهو دراسة الأدب من جانب اللغة. ومن المعروف أن علم اللغة الحديث، قد حقق إنجازات علمية باهرة ومنضبطة على يد العالم السويسري «فرديناند دي سوسير» (١٨٥٧-١٩١٣)، ومن عاصره أو جاء بعده من العلماء اللغويّين الألمان أو الفرنسيّين.

ومعنى هذا أن «علم الأسلوب» قد نشأ وازدهر في مجال البحث اللغوي قبل أن يهتمّ به نقّاد الأدب.

وإذا كان علم اللغة الحديث - أو علم الأسلوب اللغوي - قد انفصل عن معظم الدراسات الإنسانية، التي كان ينتمي إليها، وأصبح (علمًا) منضبطا له قوانينه وقواعده العلمية الخالصة، فإن الفَصيل المتقدم من النقاد العرب اليوم، يطمحون إلى توظيف مناهج علم الأسلوب اللغوي، لتكون صالحة لدراسة النصّ الأدبي. إن النص الأدبي - أو «القول» - ليس إلا واحدًا من مجالات استخدام «اللغة» في جميع مجالات الحياة، ومهما كانت اللغة الأدبية «منحرفة» بالقصد عن التوظيف الإشاري للغة ومحمَّلة بمحتوى عاطفى وحساسية شعورية، فإنها تَظلُّ - فى النهاية - وقائع لغوية، قابلة للدرس المنهجى، وخاضعة للقوانين العلمية التى حقّقها علم اللغة العام الحديث.

ومعنى هذا أن عمل الناقد الأسلوبى هو أن يبيّن مدى الارتباط بين التعبير اللغوى والشعور النفسى.

وإذا كان علم اللغة الحديث قد انفصل تمامًا عن علم اللغة القديم، فإن «علم الأسلوب الأدبى» يبدو هو الآخر منفصلًا إلى حد كبير عن العلم القديم، الذى كانت

بينهما بعض أوجه التشابه - وهو «علم البلاغة». إن علم الأسلوب وهو علم «وصفى» حديث، يختلف اختلافًا كبيرًا عن علم البلاغة، وهو علم «معيارى» قديم، يعتمد على قوانين منطقية مطلقة؛ من هنا يحاول أصحاب هذا العلم - علم الأسلوب الأدبى - أن يجعلوه (بديلًا) موضوعيًا جديدًا، لعلم البلاغة الجامد القديم. علم البلاغة كان يحاول دراسة «الكلمة» التى تعدل عن معناها القاموسى فى إطار علم «البيان»، أو دراسة الجملة، التى تخرج عن معناها الحقيقى إلى غرضٍ بلاغى فى إطار علم «المعانى». ولكن هذا العلم - البلاغة - لم يكن يدرس كل ما يتصل بمظاهر «الانحراف» الجمالى فى النصّ الأدبى، كما أنه تحوّل لدى كثير من العلماء المتأخرين إلى قواعد منطقية جامدة، لا تهتم كثيرًا بربط «الكلام» الأدبى بـ «مقتضى الحال» - الذى حرصتْ على أن تدرسه. وليس أدلّ على تحجّر البلاغة من ازدهار ما يسمَّى بعلم «البديع»، ومعظم أبوابه - فى حقيقتها - ليست من البلاغة فى شىء. ومعنى هذا أن البلاغة - رغم تعدد علومها وتشعب أبوابها - قد أصبحتْ قاصرةً عن دراسة النصّ الأدبى.

ويتأسس على هذا أن علم الأسلوب الأدبى - وهو قائم بالتبعية على علم الأسلوب اللغوى - قد غدا الوريث الشرعى الحديث لعلم البلاغة القديم. وهذا العلم الجديد، يقنن لدراسة النص الأدبى عبر مجالات أوسع وآفاق أرحب، وهى دراسة النص على ثلاثة مستويات لغوية، وهى: التركيب - والدلالة - والصوت، أى أنه يدرس النصّ على كافة مستوياته التعبيرية من أدناها وأبسطها إلى أبعدها وأعقدها، وهو يدرس دلالات الكلمات والجمل وطريقة تركيبها، كما يدرس المعنى الكلى للنصّ، بل إنه يطمحُ إلى ما هو أكثر من ذلك، وهو خواص الأسلوب العامة عند أديب، أو فى إطار نوع أدبى، أو مدرسة أدبية. وهذا يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه، وهو أن وظيفة علم الأسلوب الأدبى هى استخدام مفاهيم علم اللغة العام لمعرفة الخصائص الجمالية، التى يتميز بها النص الأدبى.

وقد صدرت فى مجال **الدراسات الأسلوبية** مجموعة من الدراسات نشير - هنا - إلى **أهمها**، وهى:

لطفى عبد البديع:	التركيب اللغوى للأدب
شكرى عيـــاد:	مدخل إلى علم الأسلوب

شكرى عياد	:	اللغة والإبداع
إبراهيم أنيس	:	دلالة الألفاظ
كمال بشر	:	علم الأصوات
محمود فهمى حجازى	:	مدخل إلى علم اللغة
تمام حسان	:	اللغة العربية معناها ومبناها
عبد الحكيم راضى	:	نظرية اللغة فى النقد العربى
سعد مصلوح	:	الأسلوب - دراسة لغوية إحصائية
صلاح فضل	:	علم الأسلوب - مبادئه وإجراءاته
شفيع السيد	:	الاتجاه الأسلوبى فى النقد الأدبى
عبد السلام المسدّى	:	الأسلوبية والأسلوب
محمد الهادى الطرابلسى	:	خصائص الأسلوب فى الشوقيات
طه وادى	:	شعر ناجى - الموقف والأداة
طه وادى	:	جماليات القصيدة المعاصرة[1]

ويضاف إلى الدراسات السابقة - وغيرها الكثير - هذه الدراسة الجديدة «قضايا التركيب فى شعر البارودى» التى أعدّها تلميذى النجيب وصديقى العزيز الدكتور فتح الله سليمان.. وكانت رسالته للدكتوراه، وقد بذل فيها جهدًا طيبًا، سواء فى مجال الدراسة النظرية لعلم الأسلوب، أو فى مجال الدراسة التطبيقية عند دراسته لأهم قضايا التركيب فى ديوان الشاعر العربى الكبير محمود سامى البارودى (١٨٣٩ - ١٩٠٤م). وقد درس بموضوعية وشمولية أهم قضايا التراكيب عند البارودى، وهى: التناوب. والحذف. والاعتراض، والتقديم والتأخير، والالتفات.

ولا شك أن الباحث الدكتور فتح الله سليمان - يدخل بهذه الدراسة الرصينة في إطار كوكبة الباحثين الجادين، الذين حاولوا تأصيل هذا العلم الجديد فى عالمنا العربى المعاصر، فى مجال الدرس الأسلوبى على مستويْه : اللغوى والأدبى. غير أن التحدّى

---

(١) هناك مجموعة كبيرة من الدراسات المترجمة وبعض الرسائل الجامعية غير المطبوعة - لم نشر إليها، لأنها في حاجة إلى بيليوجرافيا خاصة.

الحقيقى أمام هذا العالم الشاب.. وأمام جيله، ليست فى طرق مجال جديد للبحث فحسب، وإنما هناك ما هو أخطرُ وأجلُّ.. وهو قضية التواصل والاستمرارية.. وأن يحاول الباحث أن يتخطّى - سريعًا رغم كل العوائق والصعوبات - هذه المرحلة إلى مرحلة الإضافة والابتكار.

إن البحث العلمى.. صعْبٌ.. وطويلٌ سُلَّمُه ، بيد أن الصبر والمثابرة والجهد والمذاكرة، أسلحة الباحث الطموح؛ كى يَمضِى - قُدُمًا - إلى الأمام. وهذا هو ما أرى أن الدكتور فتح الله سليمان - وجيله - قادرون عليه. بإذن الله.

والله العلى القدير أسأل أن يوفقنا جميعًا من أجل تقديم الجيد والجديد.. ومناصرة النافع والمفيد.. وتأصيل كل ما هو سديد، فى حياتنا العلمية وجامعاتنا العربية، إنه نعم المولى.. ونعم النصير.

د: طه وادى

أستاذ الأدب العربى الحديث

كلية الآداب - جامعة القاهرة

يناير ١٩٩٠م

* * * * *

مقدمة

تعد الأسلوبية من أحدث ما تمخضت عنه علوم اللغة فى العصر الحديث. والراصد لتيارات النقد العربى واتجاهات البحث اللغوى يلحَظ أن هذا المجال ما يزال فى بداياته المبكرة فى نطاق الدراسات العربية.

والأسلوبية هى أحد مجالات نقد الأدب اعتمادًا على بنيته اللغوية دون ما عداها من مؤثرات اجتماعية أو سياسية أو فكرية أو غير ذلك.. أى أن الأسلوبية تعنى دراسة النص، ووصف طريقة الصياغة والتعبير.

والأسلوبية وعلم الأسلوب مصطلحان مترادفان، وقد آثر البحث أن يستخدم أوَّلهما، لأن هناك من يزعم أن الأسلوبية ليست علمًا.

وثمة تعريفات ثلاثة لمصطلح «أسلوب»:

التعريف الأول: ويتم من منظور المنشئ. ويقوم على أساس أن الأسلوب يعبر تعبيرًا كاملًا عن شخصية صاحبه، بل ويعكس أفكاره ويظهر صفاته الإنسانية.

أما التعريف الثانى: وهو ينبع من زاوية النص، فيعتمد على فكرة الثنائية اللغوية التى تقسم النظام اللغوى إلى مستويين: مستوى اللغة، ويقصد به بنية اللغة الأساسية، ومستوى الكلام، ويعنى اللغة فى حالة التعامل الفعلى بها.

وينقسم المستوى الثاني إلى قسمين آخرين:

أولهما: الاستخدام العادى للغة، **وثانيهما:** الاستخدام الأدبى لها.

وهذا المستوى الثانى هو مجال البحث الأسلوبى باعتبار أن الفرق بين الاستخدام العادى للغة والاستخدام الأدبى لها يكمن فى أن هناك انحرافًا فى المستوى الثانى عن النمط العادى. والانحراف - هنا - يعنى الخروج على ما هو مألوف فى الاستعمال اللغوى مما يُشَكِّل - فى النهاية - ما يُسَمَّى بالخاصية الأسلوبية.

وأما التعريف الثالث: فهو يتحدد من جهة المتلقِّى، وأساس هذا التعريف أن دور المتلقى فى عملية الإبلاغ مهم إلى الحد الذى يراعى فيه المخاطب حالة مخاطبه النفسية ومستواه الثقافى والاجتماعى. كما يؤثر فى هذا الخطاب عُمْرُ المخاطب وجنسُهُ. وعلى

المنشىء أن يثير ذهن المتلقى حتى يُحْدِثَ تفاعلاً بينه وبين النص، واستجابةُ المتلقى ورفضُه هما المَحَكُّ فى الحكم على مدى حدوث هذا التفاعل.

واختيار شعر البارودى (١٨٣٩ - ١٩٠٤م)، لدراسة قضاياه التركيبية يرجع إلى أمرين:

الأمر الأول: ويتمثل فى أن البارودى يعد - بحق - رائد النهضة الشعرية وباعثها بعد عصور من التخلف والانحطاط، فهو الذى ردَّ للشعر مكانته العظيمة ومنزلته السامية بعد أن أصبح وسيلة للتكسب والارتزاق، وليس ثمة شك فى أن مدرسة الإحياء التى تزعمها البارودى «قد قامت بالدرو الأول ومثلت البدء الضرورى والصحيح لأية نهضة أدبية تالية فى أى من الأقطار العربية»[1].

الأمر الآخر: أن الباحث قد سبق له التعامل مع شعر البارودى، وذلك فى رسالته عن «الجملة الشرطية فى شعر محمود سامى البارودى» التى نال بها درجة الماجستير، فأتاح له ذلك الاطلاع - على نحوٍ ما - على شعر البارودى والوقوف على بعض سماته.

ويحاول هذا البحث دراسة القضايا التركيبية فى أسلوب البارودى من حيث الأنواع والسمات والخصائص، كما يحاول وصف بنية العربية فى شعره تطبيقًا على إنتاجه الشعرى، مما يتيح لنا الوقوف على الثوابت والمتغيرات فى هذه اللغة وعلى خصائصها المميزة، كما يمكننا ذلك من معالجة النص بمعايير منضبطة، حيث يبرز بوضوح أهمية المعيار الموضوعى لترشيد الأحكام النقدية.

وهذه الدراسة لا تعنى بتحديد القضية ودراستها فحسب، بل إنها - وهذا هو اتجاهها الأساسى - تهتم بتوضيح مدى شيوع الظاهرة الأسلوبية أو ندرتها مستخدمةً فى ذلك المنهج الإحصائى.

ويقوم هذا البحث على ثلاث ركائز أساسية:

- **الأولى:** الوصف.
- **الثانية:** التحليل .
- **الثالثة:** استخلاص النتائج.

وهذا البحث يتناول أبرز القضايا التركيبية في شعر البارودي مستخدمًا في ذلك

(١) د. طه وادي: جماليات القصيدة المعاصرة، دار المعارف (١٩٨٢م) ص٢٠١.

المصطلحات البلاغية والنحوية باعتبارها وسائل إجرائية لدراسة الظواهر الأسلوبية، حيث إن العلاقة بين الأسلوبية وكلٍّ من البلاغة والنحو وثيقة ومؤكدة.

وتقع هذه الدراسة في سبعة فصول:

الفصل الأول: «الأسلوب والأسلوبية»: ويتناول تحديد مفهوم الأسلوب من زواياه الثلاثة: المخاطِب والخطاب والمخاطَب، والبحث عن أصول الأسلوبية في التراث من المنظورين: النحوي والبلاغي، كما يدرس هذا الفصل العلاقة بين الأسلوبية وكل من البلاغة والنقد الأدبي.

ويتعرض هذا الفصل أيضًا للأسلوبية في إطار الدراسات اللغوية والنقدية المعاصرة من حيث المفهوم والاتجاهات والمجالات والوظيفة. ويبحث أيضًا المدخل إلى الدراسة الأسلوبية وأهمية البحث الأسلوبي.

الفصل الثاني: «التحليل الأسلوبي»: وفيه عرضٌ لأهمية هذا التحليل وكيفيته ومحاذيره، ثم عرض لبعض الدراسات الأسلوبية المعاصرة في مجال التحليل الأسلوبي.

الفصل الثالث: «التناوب»: ويُقصد به إحلال لفظ محل لفظ آخر، أو أداة محل غيرها، أو حرف محل ما يناظره. وينقسم إلى تناوب في الأفعال، وتناوب في الأسماء، وآخر في المصادر، ورابع في الحروف.

الفصل الرابع: «الحذف»: وفيه تحليل لمواضع حذف المسند إليه في الجملة الاسمية، وحذف المسند والمسند إليه في الجملة الفعلية، وحذف المسند والمسند إليه والاكتفاء بالمفعول المطلق، وحذفهما لوجود قرينة على حذفهما، وحذفهما في التراكيب الشائعة.

ويتعرض الفصل أيضًا للحذف في التركيب الشرطي، ثم لحذف النعت والمنعوت، والمستغاث به، والمستغاث لأجله، والمعطوف عليه.

الفصل الخامس: «الاعتراض»: ويُقصد به اعتراضُ كلام بين عنصرين متلازمين. وفيه دراسة لظواهر الاعتراض بين عناصر الجملة الفعلية، وبين عناصر الجملة الاسمية بركنيها المبتدأ والخبر والجملة الاسمية المنسوخة بإنَّ أو إحدى أخواتها، ثم الاعتراض بين النعت والمنعوت، وأخيرًا الاعتراض في التركيب الشرطي.

الفصل السادس: «التقديم والتأخير»: ويدرس السمات العامة للتقديم والتأخير، مثل: تقديم المفعول به، والحال، والمفعول لأجله، والمفعول به والمفعول لأجله معًا، والمفعول به والتمييز معًا، والمفعول به والجار والمجرور معًا، والمفعول به والحال والجار والمجرور في آن. ثم يتعرض الفصل للسمات الخاصة، مثل: تأخير الفاعل ووقوعه مقطعًا للبيت، وتأخيره ووقوعه بين المفعول الأول والمفعول الثاني. وأخيرًا يتعرض الفصل للتقديم والتأخير في التركيب الشرطي.

الفصل السابع: «الالتفات»: وهو الانتقال من أسلوب إلى آخر أو من ضمير إلى غيره مع اتحاد المرجع. ويبحث الالتفات عن ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب، وعن ضمير المخاطَب إلى ضمير الغائب، وعن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم، ثم الالتفات عن ضمير الغائب إلى ضمير المخاطَب، كما يتطرق الفصل إلى ظاهرة الإخبار عن المؤنث بالمذكر، وظاهرة التحول عن المذكر إلى المؤنث وعكسها.

وتعتمد هذه الدراسة - من حيث المادة اللغوية - على مصدر واحد فقط هو ديوان البارودي بأجزائه الأربعة ط دار المعارف. حقق الجزأين الأول والثاني على الجارم ومحمد شفيق معروف، وحقق الجزأين الثالث والرابع محمد شفيق معروف.

وأخيرًا، فهذه محاولة للتأصيل النظري والتطبيق العملي في مجال البحث الأسلوبي، ولا نزعم أننا قد بلغنا بها الغاية وحققنا المراد، وحسبنا أن تكون هذه الدراسة خطوة في مجالها قد تضاف إلى ما سبقها وما سيلحقها من خطوات.

فتح الله سليمان

* * * * *